مجلة "آفاق فكرية"

ص. ص. 189 - 201

رت م د: 2353 - 0367

رت م د إ: 2602-5507

مرض الطاعون من خلال الرواية السردية:
قراءة في رواية الطاعون "لألبير كامو" أنموذجا

Plague disease through the narrative novel
Read a plague novel by "Albert Camus

فايزة بوسلاح

المدرسة العليا للأساتذة، وهران (الجزائر)، f.bouslah2018@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/06/01 **تاريخ القبول:** 2020/10/20 **تاريخ النشر:** 2021/10/30

ملخص

تعد رواية "الطاعون" لألبير كامو والتي صدرت عام 1947، من أهم الروايات التي عالجت موضوع الطاعون من منظور أدبي روائي سردي، فهي بذلك نص روائي له علاقة بالتراث السردي التاريخي، أو يمكن أن نقول: خطاب روائي له علاقة بالتراث السردي التاريخي. وهي عبارة عن قصة عاملين في المجال الطبي يتآزرون في عملهم زمن الطاعون بمدينة وهران، حيث "تطرح الرواية أسئلة حول ماهية القدر والوضعية الإنسانية". وما تجدر الاشارة إليه هو أن هذه الرواية تصف لنا وباء الطاعون وكيف تفاعلت معه شخصيات القصة من طبقات اجتماعية مختلفة. فالرواية تصور مشاهد "لأحداث انتشار وباء الطاعون في مدينة وهران الهادئة، والعزلة المميتة التي عاشها سكان المدينة عن العالم الخارجي، وفقدان خدمات الحياة اليومية بسبب انتشار هذا الوباء" تلك الأحداث الشيقة التي رسمتها ريشة مبدع، رغم ضبابية الأحداث التي تنم عن شؤم وكآبة وحزن، لكون الرواية تشرح ذلك الوباء الفتاك

كلمات مفتاحية: الطاعون- الوباء - الرواية – الخطاب – وهران.

Abstract:

Albert Camus' "The Plague", which was published in 1947, is one of the most important accounts that dealt with the subject of the plague from a literary narrative perspective, as it is a narrative text related to the historical narrative heritage, or we can say: a narrative speech related to the historical narrative heritage. It is a story of medical workers working in the work of the time of the plague in the city of Oran, where "the novel raises questions about what is destiny and the human condition." What is worth noting is that this novel describes the plague epidemic and how the characters of the story interacted with it from different social classes.

Key words: The plague - the epidemic - the novel - the speech - Oran.

مقدمة:

ساهمت النخب العربية في الأدب الروائي بشكل فعال، مدركة بأهمية هذا النوع من الحقول الأدبية الذي يخدم بشكل أو بآخر اللغة العربية سواء كانت أصلا أو ترجمة، وغالبا ما تكون روايات النخب الأدبية تحاول توضيح فكرة معينة كإبراز المشاكل المعاصرة للوعي البشري والقيم الإنسانية.

إنّ إيماننا بأهمية الأدب الروائي جعلنا نحاول التنويه والإشادة بأهم رواية كتبت في الأربعينيات من القرن الماضي حول أدب الأوبئة، وهو ما يصادف ما نعيشه اليوم من جراء جائحة كرونا من هلع وقلق نفسي، وكأن التاريخ يعيد نفسه. ولعل من أشهر الروايات التي تناولت ظاهرة الوباء، رواية ألبير كامو التي ذاع صيتها واشتهرت وترجمت إلى لغات العالم، بل تذكر وسائل الإعلام الصحفية والسمعية والمرئية أن هذه الرواية واحدة من جملة بعض الروايات التي كثر عدد مبيعاتها بسبب الوباء، رغم أنها كتبت في فترة ماضية.

إن الطرح الأدبي والأخلاقي والإنساني الذي تقدمه رواية ألبير كامو للعالم، كونها رواية تؤمن بأن توعية الفرد والجماعة على حد سواء بضرورة الالتزام بأهم الاجراءات والتدابير الوقائية من الأمراض، حتى لا تكون هناك عدوى ومن ثم تكون الكارثة عظمى في الأرواح.

لقد حاولنا أن نعطي للقارئ صورة مبسطة عن واقع أدبيات الأوبئة في مدينة من مدن الجزائر المستعمرة خلال الحرب العالمية الثانية؛ ولو كان هذا الوباء رمزيا إلا أنه له دلالته وإيحائيته اتجاه الوضع المعاش آنذاك. كما حاولت هذه الدراسة أن تنوه بما كتبه روائيو وأدباء تلك الفترة حول الأوضاع المزرية التي كان يعيشها المجتمع الوهراني كجزء من المجتمع الجزائري خلال تلك الفترة ضمن قالب مخيالي، فحجم الكارثة الاجتماعية آنذاك، أدت إلى إفرازات متعددة الجواني كان لها الأثر البالغ والعميق في نفسية المجتمع آنذاك على اختلاف أطيافه وتعدد مشاربه ومناهله، جزائريا كان أم أوربيا.

لقد تناول الكتاب والأدباء والفلاسفة والمؤرخون والنفسانيون، كل من زاويته، رواية "ألبير كامو"، وراحوا يشرحونها تشريحا، لما تحمله هذه الرواية من معلومات وإشارات، لها علاقة بحقبة تاريخية، كان يعيش العالم فيها ويلات الحرب العالمية الثانية وانعكاساتها على شعوب العالم. وهو

ما دفع بهؤلاء المثقفين إلى التنافس حول الكتابة حولها كل من منظوره، والجانب الذي يراه مناسبا حتى يعطي آراءه وتحليلاته للواقع المعاش آنذاك.

1. التعريف بالرواية وبصاحبها:

ولد ألبير كامو (بري، 1981، ص.15) في 7 نوفمبر 1913 في قرية الذرعان وتعرف أيضاً ببلدة مندوفي **(MONDOVI)** بالطارف بمقاطعة قسنطينة بالجزائر، وكانت عائلته من "الأقدام السوداء"، عاش كامو في بيئة شديدة الفقر من أب فرنسي قُتل بعد مولده بعام واحد في إحدى معارك الحرب العالمية الأولى، فعاش مع والدته كاثرين الاسبانية المصابة بالصمم، ألا إنه تمكن من إنهاء دراسته الثانوية ثم تعلم بجامعة الجزائر من خلال المنح الدراسية وذلك لتفوقه ونبوغه حتى تخرج من قسم الفلسفة بكلية الآداب، كما انخرط في صفوف المقاومة الفرنسية أثناء الاحتلال الألماني، وأصدر مع رفاقه في خلية الكفاح نشرية باسمها ما لبثت بعد تحرير باريس أن تحولت إلى صحيفة" **COMBAT** الكفاح" اليومية التي تتحدث باسم المقاومة الشعبية، واشترك في تحريرها جان بول سارتر(شيرمان، 2011، ص.45).

ورغم أنه كان روائيا وكاتبا مسرحيا في المقام الأول، إلا أنه كان فيلسوفا وجوديا، كما يصفه بعضهم، وكانت مسرحياته ورواياته عرضا أمينا لفلسفته في الوجود والحب والموت والثورة والمقاومة والحرية، وكانت فلسفته تعايش عصرها، وأهلته لجائزة نوبل فكان ثاني أصغر من نالها من الأدباء. وتقوم فلسفته على كتابين هما "أسطورة سيزيف" عام 1942 و"المتمرد" عام1951 أو فكرتين رئيسيتين هما العبثية والتمرد. من أشهر أعماله الروائية: السقوط (1956). الغريب. الطاعون. السقطة، المقصلة، الإنسان المتمرد، الموت السعيد. كما نال ألبير كامو جائزة نوبل للآداب عام 1957. وأمام هذا العطاء الأدبي والفكري توفي كامو عام 4 يناير عام 1960 في بيرغندي بفرنسا على إثر حادث سير، وعمره ستة وأربعون سنة(Ruppé, 1958, p. 35).

أمّا عن رواية ألبير كامو فتعد من أهم الروايات العربية شهرة في القرن العشرين، والتي تناولت موضوع الطاعون الرمزي، صدرت سنة 1947، والحائزة على جائزة «نوبل» للآداب .

أمّا عن وصف الرواية، فقد كتبت عام 1940 وهي تتحدّث عن طبيب فرنسي يدعى الدكتور برنارد ريو (BERNARD RIEUX) يعيش في وهران بالجزائر "ولكن كلّ الذين يتعامل معهم في المدينة هم من الفرنسيّين، في تغييب كامل للسكان العرب وتعاني زوجته الشابة من مرض عضال استوجب نقلها إلى مدينة أخرى خارج وهران حيث تتوفّر ظروف أفضل للعلاج. وفي الأثناء قدمت أمّ الطبيب لتعيش مع ابنها وتساعده في شؤون البيت"(كامو، 2002، ص.5).

وهنا يشير الباحث محمود محمد علي إلى المشهد المريع الذي كانت عليه مدينة وهران آنذاك بقوله :" في مدينة وهران، بدأت آلاف الجرذان، التي لم ينتبه لها الأهالي في البداية، تموت في الشوارع، وبعد ذلك أخذت تلك الهستيريا بالتنامي والازدياد، الأمر الذي جعل الصحف المحلية تتناول هذا الحادث، وبعد استجابتها لضغوط الأهالي، تأمر السلطات بجمع الجرذان الميتة وحرقها، غير مدركة أن تلك المجموعة نفسها كانت العامل المحفز لانتشار الطاعون الدبلي. ثم يسرد كامو أحداث الرواية التي تبدأ في صبيحة السادس عشر من أبريل على لسان شاهد غامض، حين يرى الطبيب برنارد ريو (BERNARD RIEUX) ذلك الجرذ اللعين ميتاً أمام عتبة البناء الذي يسكن فيه، لم يعره أدنى اهتمام حينها، حيث اكتفى بإلقاء نظرة عليه ثم قام بركنه جانباً، لكن وبعد تكرار حوادث موت الجرذان يبدأ الطبيب بالتساؤل «أمن المعقول أن يكون الطاعون...؟!» (كامو، 2002، ص.7).

إنّ وصف الباحث محمود علي لذلك المشهد المريع من رواية ألبير كامو، يعطينا دلالة صريحة على مدى هول الكارثة التي حلت بمدينة وهران، وكيف كان رد فعل الأهالي اتجاه تلك الكارثة. ولعلّ من بين أهم الأسباب الداعية إلى انتشار الطاعون حسب كامو هو انتشار الجرذان بكثرة وهو عامل محفز على انتشار الطاعون. وهنا يصور لنا رؤية الطبيب برنارد ريو للجرذ الميت أما عتبة باب منزله، دون أن يليه أدنى اهتمام، وهنا يبرز التساؤل الكبير الذي حير الطبيب برنارد حول كثرة تكرار موت الجرذان. إنّ هذا التساؤل يعطي للقارئ فرصة الاستفسار عن العلاقة بين الطاعون والجرذان (كامو، 2020، ص.9).

وأمام ملاحظة الدكتور برنارد ريو (BERNARD RIEUX) لبداية انتشار المرض شيئا فشيئا بسبب موت الفئران في المدينة بطريقة لافتة للدهشة والحيرة والتعجب،" زاد اقتناعه رفقة زملائه بأنّها أعراض الطاعون. وهنا قامت السلطات الجهويّة بغلق المدينة وفرض الحجر الكليّ ومنع

السفر منها وإليها" (توزان، 2019، ص.55). وهنا تبدأ المعركة الكبيرة ضدّ الطاعون، لاسيما مع تزايد عدد المصابين والارتفاع في الحالات المصابة، وهو ما نلاحظه اليوم بسبب جائحة كرونا، فالمشهد نفسه يتكرر وكأن التاريخ يعيد نفسه كما يقال.

وهنا نجد ألبير كامو يصف لنا ذلك المشهد بقوله:" حيث بدأت أعداد المصابين تتكاثر إلى أن صارت تعدّ بالمآت كلّ أسبوع. وقد دعا الطبيب إلى عزل كلّ الأشخاص المصابين وإلى عزل كلّ الذين تعاملوا معهم...ولم يجد لديه أيّ دواء فعّال ضدّ الوباء فكان يستقبل المرضى في المستشفى ويحاول تطهير تقرّحاتهم، ومدّهم بالأدوية المتاحة التي لم تظهر أيّ جدوى في مواجهة المرض. كانت الحمّ الشديدة تلمّ بالمرضى إلى جانب أعراض أخرى جلديّة وتنفّسيّة تزيد من معاناة المصاب وألمه وتؤدّي به في الأخير إلى الموت. وكان الموتى يُدفنون في البداية في مقبرة المدينة، ثمّ ارتفع عددهم فصاروا يدفنون في مقابر جماعيّة، وأخيرا صارت جثثهم تحرق فلا يبقى منها إلاّ الرماد. وكما داهم الطاعون أبناء المدينة دون استئذان فإنّه غادرها بعد عشرة أشهر ليعيد إليها طمأنينتها إلى حين..."(توزان، 2019، ص.56).

وهناك وجد الدكتور ريو مساندة تطوعية لبعض زملائه أمثال:" السيّد تارو **(TARROU)** والقسّ بانلو **(PANELOUX)** والصحفي رمبار **(RAMBERT)** والقاضي أوتون **(JUGE OTHON)**، مع ازدياد عدد الوفيات يومياً، دون ذكر لهذا الوباء الفتاك، وهو ما جعل السكان لا يتقبلون الحقيقة المفجعة خصوصا وأنّ «المدينة مصابة بالطاعون» (توزان، 2019، ص.57)، وهنا يفرض الحصار الكلي للمدينة ضمن الاجراءات والتدابير الوقائية الصحية لمجابهة الوباء، وكأنها في سياسة عزلة منغلقة عن العالم الخارجي.

إنّ ما صرّح به الدكتور "ريو" في الفصل الأخير من الرواية على أنّه هو " الراوي الحقيقي للأحداث وأنّه التزم التجرّد والحياد في نقلها، مستعيناً أحياناً بمذكّرات تارو"، وصورة الطبيب في الرواية تمدّنا بشخص هادئ، مسؤول، مفعم بالنشاط، يحترم الآخرين ولا يعامل أحداً باستعلاء...نسّق هذا الطبيب إجراءات الوقاية والإسعاف والمرافقة للمصابين بالطاعون في مدينة وهران"(Albert, 1981,p. 489).

يعتبر الباحث محمود علي أنّ " أكثر الشخصيات جدلاً فلسفياً هي شخصية الطبيب «ريو»، والذي يبدو أنه البطل الذي اختاره «كامو» لروايته، وذلك لدوره في مواجهة الطاعون، حتى في الحالات التي يتملّكه اليأس، ويبدو له أن ليس ثمة أمل بالنجاة، إذ يواصل «ريو» أبحاثه مدفوعاً بما يسمّيه بالواجب الأخلاقي، حيث يجسّد النموذج الذي سيحمل أعباء البشرية على عاتقه، ويكافح في سبيل تحقيق الخلاص الجماعي!"(محمد علي، 2020، ص. 2).

إنّ تمثلات مشاعر الثبات والعقلانية لدى الطبيب «ريو»، وعلمه بمدى خطورة وباء الطاعون، ومع ذلك لا تزال مشاعره ثابتة؛ ومواجهته للمشهد المريب من هلع وخوف يوميا، وهو ما يجعله ينتظر حتفه وانهيار المدينة، ولعل هذا يشبه عندنا موقف القدرية من الوباء المشهد في التاريخ الإسلامي، وهو ما دفع بالنقاد اعتبار طاعون كامو وباء رمزيا .

إنّ ما سرده ألبير كامو ضمن روايته ليمكننا اسقاطه على ما خلفته الحربين العالميتين من دمار، وأمراض، وفقر وجهل، وضرب للبنى الاجتماعية والاقتصادية في الصميم وغيرها من المآسي، ليس على مدينة وهران فقط؛ وإنّما على البشرية جمعاء، يمكننا اسقاطه وفي رواية الطاعون ثمة إسقاط على واقع التي واجهت حربين مدمرتين. وهنا نجد الكثير من النقاد الذين لهم اهتمام بأعمال ألبير كامو يجزمون على أنّ الحديث " هو قدر ... فمرض الطاعون يظهر فجأة في المدينة التي تعزل فيما بعد عن العالم الخارجي كإجراء وقائي من قبل السلطات لضمان عدم انتقال العدوى بين السكان .

وهنا تظهر براعة ألبير كامو في تصوير معاناة السكان الذين يحتاجون إلى المساعدة والدعم المادي والمعنوي والنفسي حيث نجده يقول على لسان بطل الرواية الطبيب ريو:" إن الناس يتعبون من الشفقة إذا كانت الصفقة غير مجدية" (أرسون، 2006، ص. 20)، وهنا يبرز الطرح الفلسفي الذي أراده كامو في روايته، من خلال طرحها لجملة من التساؤلات البينية لاسيما ما تعلق بمسالة القضاء والقدر والواقع المعاش آنذاك. وهذا انطلاقا لما تلمحه الرواية من وجود شخصيات تغطي طبقات اجتماعية مختلفة من الطبيب إلى المطلوب لدى العدالة، إلى الطبقة الشعبية الهشة وعلاقتها بالوباء تأثيرا وتأثرا .

2. الخطاب الروائي وعلاقته بالتراث السردي التاريخي:

ليس الطاعون عند ألبير كامو حقيقياً، فوهران لم تعرف الطاعون في أواخر أربعينيات القرن الماضي. بل عرفت وباء الكوليرا قبل ذلك التاريخ بمائة عام، وهنا يبرز الخطاب الروائي السردي عند كامو، فبحسب إجماع جمهور النقاد فإنهم يعتبرون طاعون كامو رمزي، " ولا علاقة له بالجزائر، بل بفرنسا التي كانت قد اجتاحتها القوات النازية من دون مقاومة تذكر. انهارت الأمة الفرنسية، المعتدّة بنفسها أمام الغازي، وغمرها شعور عميق بالخزي، حصلت مقاومة فرنسية محدودة. تشكل جيش فرنسي انضم إلى الحلفاء في الخارج بقيادة الجنرال ديغول، غير أن الاحتلال الألماني لم يُدحر من الداخل"(Santerre, 1998, p.35).

فالحقيقة أنّ ما حصل هو اجتماع جيوش دول الحلفاء ووقوفها جنبا إلى جنب مع فرنسا في محنتها، والتي كللت بتخليصها من يد الألمان. وهنا يبرز الخطاب التاريخي المجسد في الرواية، والذي يعتبر الرواية جزء من السرد التاريخي في إبراز الحقيقة التاريخية. وقد يعتبر بعض الباحثين على أن الأدب بفرعه من العلوم المساعدة لعلم التاريخ.

المتتبع لرواية كامو مهما كان تخصصه، يرى أنّ الخطاب الروائي السردي في الرواية يسير جنبا إلى جنب مع الخطاب التاريخي، فتدوين أحداثها كان زمن الاحتلال الألماني لفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية، ولا ضير أن يكتب كامو الروائي الجزائري المولد، الفرنسي الأصل، روايته في أحد مستعمرات فرنسا آنذاك(وهران/الجزائر).

وهنا يبرز الخطاب التاريخي الاجتماعي السردي إن صحّ التعبير، كون اعتبار الطاعون الذي أصاب وهران، جائحة وبائية تحتاج إلى مجابهة ومقاومة فكانت ردة الفعل داخليا، حيث أدت هذه الجائحة إلى تغيير سلوكيات بعض الناس الذين كانوا في لحظة من اللحظات" منغمسين في شؤون حياتهم الخاصة، بيد أن التحدّي الذي طرحته عليهم الجثث الملقاة في الشوارع، والجرذان التي احتلت المدينة، أعاد تشغيل آليات مقاومة، تضامن، عمل جماعي، كانت معطلة، أو غير مختبرة" (lebesque, 1963, p.19). ولعل التاريخ يعيد نفسه بما نشاهده اليوم من مخلفات وآثار جائحة كروونا.

يصف ألبير كامو هذا الوضع الكارثي بمدينة وهران بقوله:" كان على وهران التي حوصرت وراء سياج الطاعون ألا تنتظر العون الخارجي؛ بل كان عليها أن تبتكر الحل من الداخل، المواجهة من خلال العمل الجماعي. فالطاعون ليس مرضاً. المرض يصيب الأفراد. إنه وباء. وهذا يطال الجماعات، ولا يفرّق بين فئة وأخرى. لا فئة معصومة من الوباء"(غازي النعيمي، 2010، ص.34).

3. مرض الطاعون/ العلامة والرواية:

يرى علماء اللغة (اللسانيون) في تحديد مفهوم اللغة قولهم: "أن علم العلامات بحث عام يشمل جميع أنظمة التواصل، على اختلاف مرجعياتها المعرفية من علوم ومعارف وآداب وطقوس"، وهنا يبرز الأدب بوصفه نظاما تواصليا له خصوصية مميزة عن غيره من الأنظمة التواصلية الأخرى. فرواية «الطاعون» مثلا هي تجسيد لفلسفة «ألبير كامو»، حيث تقود القارئ إلى قراءة مبرمجة أحادية المعنى تتوافق مع نظام فك شفراته، وهي قراءة لا تتغير فيها دلالات الأشياء التي ذكرها ألبير كامو في روايته مثلا(غازي النعيمي، 2010، ص.35).

إنّ هذه الخصوصية يمكن لها تحديد (قراءة) العلامة الأدبية على نحو عام والعلامة الروائية على نحو أخص. فالرواية مدونة سردية تعتمد أساسا على الواقع الحياتي المعاش، إلا أنها بخلاف أجناس أدبية اخرى (الشعر، المسرحية، الرواية) " لا تتحدد بسماتها الشكلية بقدر ما تتحدد بمدلولها المرتبط عادة بفكرة المتخيل. وهنا يمكن اعتبار رواية الطاعون لألبير كامو من هذا الصنف الأدبي.

وبهذا تبرز العلاقة الجدلية بين الواقع والمتخيل، أي بين واقع الوباء الذي ضرب مدينة وهران وبين ما يتخيله ألبير كامو من أحداث وسرد لحيثيات وباء رمزي، يحاول اسقاطه على مجتمع منهار اقتصاديا واجتماعيا ومن ثم مربوط سياسيا بسلطة استعمارية أقوى تخضعه لظروف حياتية معيشة. ولعلّ هذه العلاقة الجدلية السالفة الذكر تبرز قيمتها في التحكم بالصياغة الفنية لمفردات الشكل الروائي وهو ما نلحظه في رواية كامو، أين نجد اجتماع التقنيات والدلالات المتناقضة، وبما أن النصوص الروائية التي استعملها كامو في روايته، تتكون حسب البحث السيميائي من شفرات متعددة يمكن عن طريقها استخلاص معنى من حدث ما على أساس الهيئة النهائية للعلامة منتظمة كذلك من تلك الشفرات (محمد علي، 2020، ص. 12).

وعلى هذا الأساس حرصت رواية كامو منذ مطلعها (عنوانها) على عرض عدد من العلامات التي عملت على تحديد هوية النص الروائي، وتبرر دلالاته المختلفة وعن طريقها تمكين القارئ من تقليص التباسات النص الروائي الذي بين أيدينا. ولعل محاولتنا هذه من تبيان النص الذي سرده لنا كامو في ورايته، إنما هو في الحقيقة نسق يتكون من عناصر تعمل على خلق المعنى.

فرواية الطاعون لألبير كامو تتمحور حول فكرتين أساسيتين هما «التمرّد والعبثية»، وهي في الوقت نفسها تطرح رؤية حول الموت والوجود، "إذ بعد عشرة أشهر قاسية ومرعبة يبدأ وباء الطاعون بالاختفاء بفضل تكاثف الجميع، وسعيهم لتحقيق خلاصهم الجماعي، إذ نجح الطبيبان «ريبو» و«كاستيل» بإنتاج مصل مضاد أعطى مفعولاً في وجه الطاعون، ليترقب «ريو» نشر الإحصاءات العامة التي كانت تذاع في مطلع كل أسبوع، فإذا هي تكشف عن نهاية الوباء(بنشيخة، 2018، ص. 1).

يتجلى لنا من خلال الرواية التي تصف مدينة وهران على أنها المدينة الميتة والعادية وفي نفس الوقت القبيحة، وهي علامة كارثية بوصفها قد دفعت العالم إلى شكل جديد من الموت يصفه كامو بالموت العصري. فهدوء المدينة ورتابتها وقبحها وضجر الحياة فيها كلّها مقدّمات سردية لتناقض سردي يعدّ له المؤلف بكل حنكة: «لم يكن ثمّة شيء يدفع مواطنينا إلى ترقّب الأحداث التي وقعت في ربيع ذاك العام» (كامو، 2002، ص.9).

لقد حاولت الرواية أن تنقل لنا التصوّر المشهدي لتلك الإجراءات والتدابير الوقائية التي كانت مفروضة وقتئذ، فتركيز كامو على سيارات الإسعاف وأعداد الضحايا في المدينة المنكوبة لم يكن بقدر التركيز الذي منصبا على الكيفية التي أثَّر بها الطاعون على المواطنين، والذين أعادوا مثلنا ترتيبَ الأولويات والبرامج اليومية؛ بل وفي بعض الأحيان العلاقات وأنماط العيش (إدريس، 2013، ص. 24).

ثم إن " فقدان الشعور العاطفي عند أنسان العالم العربي بالخصوص، هو رمز لاستبداده وبداية لزعزعة حضارته، كما أن اختيار كامو لمدينة وهران المستعمرة كنموذج لسلبيات هذا التطور، يبرزه عندما وصلته وحشية الاستعمار الفرنسي في إقباله على نهب خيرات هذا البلد، وتناسيه لحقوق الشعب الجزائري. ويعود ذلك في نظرنا أيضا، إلى أن إهمال الجانب الروحي

والجمالي لهذه الحضارة، له علاقة بعهد الاستعمار المتواجد بأرض الجزائر، وأن مثل تلك الأوضاع الاجتماعية المزرية بالجزائر تبشر بنهاية هي اشبه ما تكون بوباء الطاعون" (توزان،2019 ص.57).

لقد احتوت رواية كامو على الوحدات القرائية (الكبرى) في فك مغاليق الشفرات الرئيسة الخمس كما حددها واستنبطها بارت من قصة بلزاك. وهي التي تنضوي فيها الدوال النصية كلها، وتتمثل في: الشفرة التخمينية، الشفرة الدلالية، الشفرة التأويلية، الشفرة الرمزية، الشفرة الإحائية (الإشارية). وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار رواية كامو قد بحثت في تقني الشكل الروائي والمضامين التي صاغها في قالب سردي حكائي، وبهذا فهي دراسة تجمع بين (الشكل/ المضمون) للوصول إلى المعنى.

4. القيمة التاريخية والأدبية للرواية:

احتوت رواية "الطاعون لألبير كامو" على عدم قيم علمية تجسدها تلك الحوارات والمناظرات التي كانت بين شخصيات الرواية. قيمة تاريخية تبرز في محاولة وصفه لمجتمع مدينة وهران خلال فترة الحرب العالمية الثانية؛ حيث يبرز كامو الحياة الطبيعية التّي كان يعيشها سكان ميناء مدينة وهران، والتي يعتبرها مسرحاً لأحداث هذه الرواية، مثل المدن الأخرى في العالم المعاصر في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، مشيرا إلى الهدوء والاطمئنان الذي يسود العلاقات العامة بين أفراد هذه المدينة.

وقيمة أدبية تبرز في ما حال ألبير كامو أن يكشف عليه من خلال ما وصفه " بالروح الإنسانية التي مازالت لم تستسلم لمعرفة هذا الوباء؛ لأن سكان المدينة لا "يشعرون بالخير ولا بالشر، وهذا ما يسمح للوباء بأن ينتشر بينهم". (مكاوي، 1964، ص. 104).

وهنا تبرز قيمة الأدب الروائي في كونه يسرد الأحداث من منطلق روائي ضمن قالب إيحائي ممزوج في بعض الأحيان بالمخيالية، التي تعطيه طابعا أدبيا راقيا. وهو ما يميز العمل الأدبي عن التاريخي، فكلاهما يعتمد أسلوب السرد؛ إلا أنهما يختلفان في طريقة وكيفية إيصال الفكرة المراد تبليغها للقارئ.

وهنا نجد الباحث عبد القادر فيدوح في تناوله لمفهوم السردية التقليدية والتي نعتقد أنها تنطبق على رواية الطاعون لألبير كامو بقول:" وإذا كانت السردية في مفهومها التقليدي تعني وظيفة

يؤديها السارد، ويقوم بها وفق أنظمة لغوية ورمزية؛ فإنها قد اتخذت مفهوما واسعا ومغايرا يتصل بعلاقة السارد ذات الكثافة الوجدانية والحميمية بالمسرود له، وبالشخصيات الساردة لتكف عن كونها مجرد "مرسلة" وتمارس فعاليتها خارج المجال النصي من خلال تفاعلية المرسل (المقروء) مع المرسل إليه الذي تصله اصوات الشخصيات الممثلة معبرة عن ذاتها وقلقها، وتناقضها وطبيعة تفكيرها،..." (فيدوح، 1996، ص.40).

فعلا يكاد ما تفضل به الباحث فيدوح ينطبق على رواية ألبي كامو، من خلال ذلك الكم الكبير من الشخصيات المتداولة في الرواية، ومن خلال أيضا قلقها من وباء الطاعون، الذي هدد حياتها وجعلها محصورة ما بين الموت والحجر. وهذا مما لاشك يفصح عن كوامن لتلك الشخصيات ومواقفها ضمن الرواية.

ومما تجدر الإشارة إليه هو تعدد طبعات ونشر رواية الطاعون لألبير كامو؛ نظرا لأهميتها وذيوع صيتها وشهرتها عالميا، وبروايات متعددة (العربية، الاسبانية، الايطالية، الفرنسية،...)، وهذا دليل واضح على ما ينضوي تحتها من معان وإيحاءات نفسية تارة وتربوية تارة أخرى.

خاتمة:

لقد حملت رواية الطاعون لألبير كامو عدة أبعاد ومعاني، انطلاقا من المدينة(وهران) المستعمرة، خلال فترة الاحتلال الألماني لفرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية (1939-1945)، وهي دلالات تنم عن البعد والحس التاريخي الذي كان لدى كامو، ولهذا فراويته تكتسي أهمية كبيرة بشطريها الفلسفي والأخلاقي، فهي تعطي معن للحياة من خلال الثورة كما يصفها الباحث فريال صالح عمر في دراسته " مظاهر الخوف في رواية الطاعون لألبير كامو.

إنّ القارئ المتمعن لرواية كامو يلحظ أن القالب الذي صيغت فيه الرواية قالب مخيالي، يتقاطع فيه الخيال السردي بالواقع الانساني العبثي. حسب تصور كامو. ومن هنا كانت هذه الرواية من أهم وأروع الروايات التي تناولت وباء الطاعون ولكن من جانب مخيالي، يعكس صورة معاناة المواطنين الجزائريين خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية التي كانت مجابهة للقوة الألمانية

آنذاك، إلى جاني الوضع الاجتماعي والاقتصادي التي كانت تعيشه مدينة وهران كباقي المدن الجزائرية خلال تلك الفترة.

لقد حاولن قدر الامكان أن ننوه برواية ألبير كامو، التي ذاع صيتها وفاق انتشارها كل الحدود الجغرافية والفكرية، وبما تحويه من تصورات لواقع مر ومزري عاشه المواطن الجزائري والأوربي على حد سواء، وكان الكاتب نفسه واحدا من هؤلاء.

الملاحق:

صور أغلفة رواية الطاعون لألبي كامو

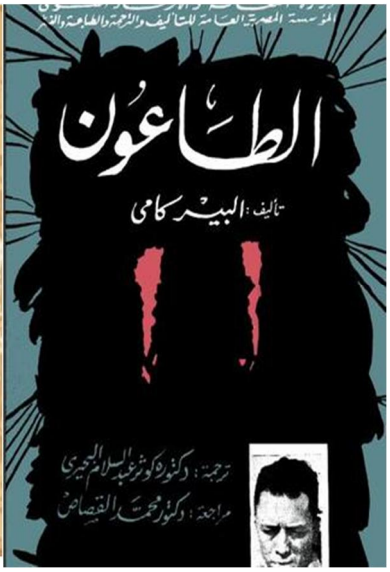

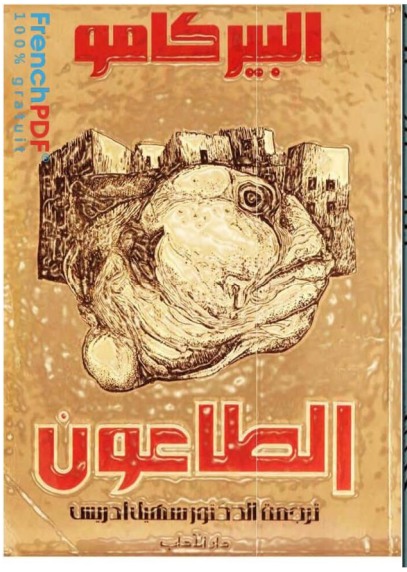

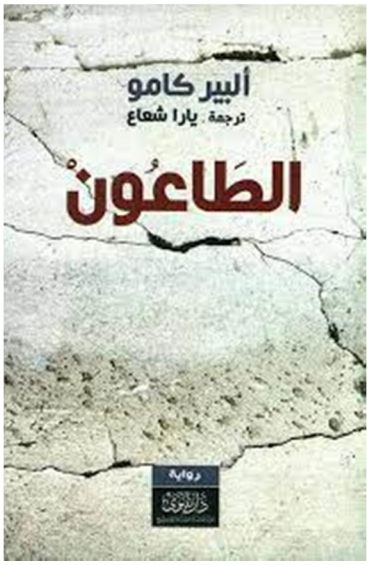

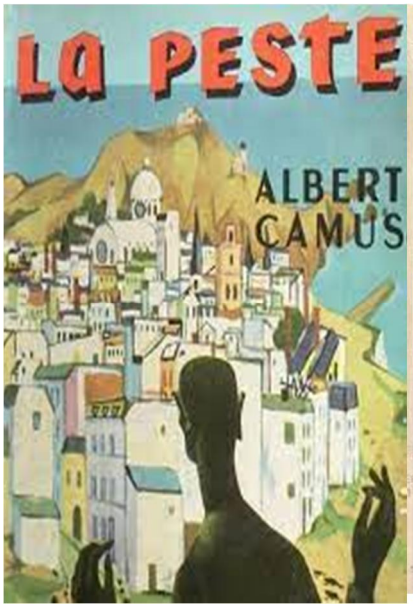

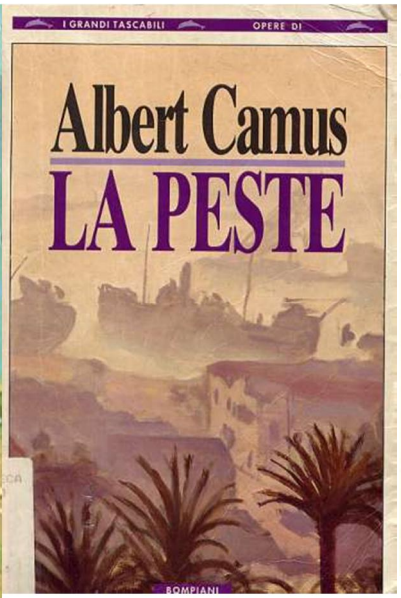

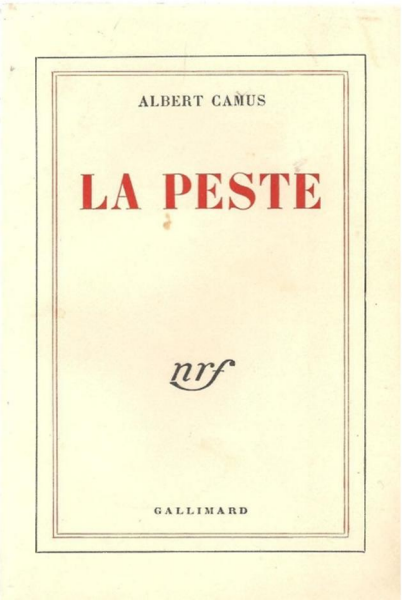

قائمة المصادر والمرجع:

1. أرنسون، رونالد. (2006). كامي وسارتر. ترجمة شوقي جلال. (دط). عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
2. ألبير، كامو. (2002). الطاعون. ترجمة كوثر عبد السالم البحيري، (دط). دار الثقافة العربية للطباعة، القاهرة؛
3. بري، جرمين. (1981). ألبير كامو. ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، (ط2). المؤسسة العربية للدراسات، بيروت لبنان؛
4. توزان، عبد القادر. (2019). وصف مدينة وهران في رواية الطاعون لألبير كامو. مجلة "الدراسات الثقافية واللغوية والفنية"، ألمانيا: المركز الديمقراطي العربي، (العدد05)، ص.ص. 55-58.
5. شيرمان، ديفيد. (2011). ألبير كامو. ترجمة عزة مازن. (دط). المركز القومي للترجمة، القاهرة؛
6. فيدوح، عبد القادر.(1996). شعرية القص. (دط). ديوان المطبوعات الجامعية، وهران الجزائر؛
7. النعيمي، فيصل غازي.(2010). العلامة والرواية، دراسة سيميائية في ثلاثية أرض السواد لعبد الرحمن منيف،(ط1). دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان الأردن؛
8. Albert, Camus, (1996). La peste. Edité par Yves Ansel, (SE). Gallimard, Paris.
9. Lebesque, Morvan.(1963). Albert Camus par lui-même, Ecrivains de Toujours,(SE). Editions du Seuil, Paris.
10. Ruppé, Robert. (1958). Albert camus. (5E). Editions Universitaires, Paris.
11. Santerre, Jean-Paul. (1998). Leçon Littéraire sur noces d'elbert Camus. (SE). Collection Major. Paris.
12. Salih Omar, Frrial.(2016). Etude des aspcts de la peur dans la peste.d'Albert Camus, Journal of the college of languages, Irak, n:33, pp 200-221.
13. أحمد ابراهيم الشريف (2020/03/03)، "الطاعون" رمز ألبير كامو عن سقوط فرنسا أمام النازيين، HTTPS://WWW.YOUM7.COM/STORY/2020/3/3/100، (تاريخ التصفح، 2020/06/30).
14. محمود محمد علي،(2020/05/06)، أدب الأوبئة والجوائح: رواية الطاعون لألبير كاموا "أنموذجا"، HTTP://WWW.ALMOTHAQAF.COM/B/READINGS-5/946070(تاريخ التصفح، 2020/06/30).
15. إدريس سالم، (2019/09/02)، رواية «الطاعون»: أسئلة فلسفية عن الموت والقدر والإنسان، HTTPS://WWW.INTELLIGENTSIA.TN، (تاريخ التصفح، 2020/06/30).